الفصل السادس

تعلم الدرس

بحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان معظم "المرحلين" فى ألمانيا قد وجدوا مأوى لهم ... فالسجناء قد أعيدوا إلى أوطانهم، أما اليهود الناجون فقد هاجر أغلبهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل، فيما تم إعادة توطين الملايين من "الإثنيين" الألمان، وذلك فى ألمانيا الغربية بالأساس. إلا أن طائفة كبيرة قد ظلت تحيا فى مخيمات – طائفة من أجانب بلا مأوى ولا وجهة ينزحون إليها ...

تلك الطائفة التى أطلقت صحيفة "فرانكفورتر ألغماينه" Frankfurter Allgemeine (١٩٥٢) على الواحد من أفرادها لفظة "رجل المعسكر" homo barrackensis – أى ذلك الذى كتب عليه أن يحيا فى داخل المعسكرات. وكان أفراد تلك الطائفة – فى مجملهم – من المسلمين. ففى زيارة لأحد الباحثين الاجتماعيين لمائتى ألبانى فى ضاحية "أوتويرون" بجنوب ميونيخ، أورد الباحث أنهم كانوا يحيون حياة قاسية ... إذ كان يتقاسم الثمانية غرفة واحدة بلا كهرباء، وحيث كان المصدر الوحيد للمياه يبعد مسيرة ستمائة متر على الأقدام، فضلا عن إصابة العديد من الأطفال هناك بالسل ... بل كانت هناك لافتة مثبتة على المبنى من الخارج كتب عليها: "المبنى مهدم ... دخول المرء على مسئوليته الشخصية".

بيد أن مسلمى ميونيخ لم يكونوا جميعهم يحيون وفقا لتلك الشاكلة. إذ كان كثير منهم يملكون سكنا ويعملون بمشاريع، أو كانوا قد التحقوا بالعمل "باللجنة

الأمريكية" ... إلا أن الكثير - أيضا - كانوا بحاجة إلى المساعدة ... والتى جاءت على يد "إبراهيم كوجا أوغلو" ... وهو إمام فظ عى اللسان، لكنه مؤتمن أمين. ففى أثناء الحرب الكونية الثانية، كان "كوجا أوغلو" زعيما إسلاميا موثوقا. أما مولده فكان فى عام ١٩٠٣ بشمال القوقاز ... ذلك الزعيم الذى اتسم بولاء شديد للألمان. لقد كان معظم الجنود المسلمين الذين انخرطوا فى صفوف الألمان يتسمون بحداثة السن، إذ كان معظمهم لم يبلغ العشرين بعد ... فيما كان "كوجا أوغلو" يكبرهم كثيرا بما يجعله بمنزلة الأب فيهم ... كذا، فقد كان بسيطا ذا تعليم محدود، ومن ثم لجوؤه إلى الأصدقاء ليكتبوا له رسائله. وكان "الرجل" تقيا ورعا أكسبه كبر سنه تبجيلا ومهابة.

هذا، وقد أسس "كوجا أوغلو"، عام ١٩٥٣، جماعة دينية اسمها "الإسلام - الجماعة الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا"، كان الهدف منها الحفاظ على "الدين"

وتعاليمه لدى المسلمين الذين قدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف وكانوا ما يزالون يحيون – آنذاك – في مخيمات "المرحلين" بألمانيا. وحين عمد "كوجا أوغلو" إلى تأسيس جماعته ... أعلن أن هدفه هو الحيلولة دون أن يفقد الجنود المسلمون ولاءهم لألمانيا ... فالمخيمات كانت قذرة للغاية إلى الحد الذى يدفع كثيراً من أولئك "المرحلين" إلى العودة ثانية إلى السوفييت.

أما "فون منده"، فقد ساند جماعة "كوجا أوغلو" الوليدة فى بادئ الأمر ... إلا أنه، ولأسباب غير واضحة، قد أبعد نفسه عنها سريعا. هذا، وقد يكون السبب راجعا إلى كون "كوجا أوغلو" فظا غير محنك بما لا يجعله أهلا لقيادة مسلمى ميونيخ، أو أن "فون منده" لم يكن، حينها، قد أدرك بعد أهمية توظيف "الإسلام" سلاحا فى خضم "الحرب الباردة" الدائرة، آنذاك، – وبالرغم من أن "فون منده" قد ساعد العديد من المسلمين، إلا أن جهوده فى هذا الإطار قد جاءت جزءا من جهود أعم لخدمة "اللاجئين" كافة. أو لعل المسئولين الأمريكيين كانوا قد أعطوا "كوجا أوغلو" قدرا أكبر من الأموال، وكانوا الأقرب إليه ... إذ كان "فون منده" يحيا، آنذاك، فى "دوسلدورف" ... فيما كان مقر أمكومليب يقع فى ميونيخ حيث كان "كوجا أوغلو". وفى غضون عامين اثنين، كان "كوجا أوغلو" يتولى الإشراف على توزيع "وجبات" الطعام التى كانت منظمة العـــون الإنسانى الأمريكية CARE[٥١] تقوم بحزمها فى عبوات ... حيث ذكر بعض المسلمين أنه كان يتلقى تلك "العبوات" من القنصلية الأمريكية فى ميونيخ. كذا، فقد كان "كوجا أوغلو" يتولى الإشراف على توزيع بعض السلع الواردة من "مؤسسة تولستوى"، والتى ورد ذكرها آنفا (راجع الفصل الرابع، والهامش ٣٤). وبحلول عام ١٩٥٥، كانت أمكومليب تمول "كوجا أوغلو" مباشرة، إذ قامت بتمويل الاحتفال بعيد الأضحى ... ذلك الاحتفال الذى أقيم فى المتحف الألمانى (وهو متحف التقنية والعلوم فى ميونيخ) ذى المبنى

المقام على غرار الكهوف ... ذلك المتحف الذى ضم محتويات كانت وكأنها جوقة تسبح بحمد العبقرية الألمانية فى العلم والصناعة. هذا، وقد عمد "كوجا أوغلو" إلى توجيه الدعوة للاحتفال بتلك المناسبة إلى العديد من المسلمين ... ذلك الحدث الذى جذب اهتمام "الميديا" المحلية.

وكان "كوجا أوغلو" صيدا ثمينا ... ذلك القوقازى الذى لقى دعما قويا من زميل شيشانى كان معلما بمدرسة وكالة الاستخبارات المركزية ببافاريا[٥٢]. وقد كان "لكوجا أوغلو" مريدون كثر، إذ حظى بشعبية جارفة لقاء أعماله الخيرية ... تلك التى أورد إحداها "الكسندر ميلباردييس"، والذى كان، آنذاك، نائبا لرئيس شئون اللاجئين بأمكومليب، إذ ذكر أن "كوجا أوغلو" قد هاتفه - ذات مرة - فى الرابعة فجرا حيث ناشده بأن يوافيه بعربته ليحمله لزيارة رجل يحتضر خارج ميونيخ. وقد أُخذ "ميلباردييس" بوفاء "كوجا أوغلو"، فوثب فى العربة ليحمله عبر رحلة استغرقت ساعتين إلى قرية ذلك المحتضر. "لقد تولى كوجا أوغلو الإشراف على طقوس تجهيز الميت - حقا كم كان دمثا خلوقا" ... كلمات فاه بها "ميلباردييس" مكبرا شأن الرجل.

وسرعان ما أضحت قدما "كوجا أوغلو" راسختين فى المعسكر الأمريكى. ووفقا لميلباردييس، فقد كان ثمة منفعة متبادلة بين الأمريكيين و"كوجا أوغلو" الذى قام بعمل "دعاية" لمصلحتهم. إذا ... فقد صار للولايات المتحدة رجل بمقدوره قيادة مسلمى ميونيخ - وكأنما كمعادل لأولئك المسلمين الذين يوظفهم السوفييت لتتساوى كفتا الميزان. إلا أنه كان ثمة حماقة بشأن ذلك الجهد المبذول ... فموسكو قد بسطت نفوذها على ملايين القازاق والقيرغيز والتتر والأذربيجانيين، أما "بون" و"واشنطون"، فيمكنهما الزعم - فى أحسن الأحوال - بخضوع مئات أو آلاف قليلة فى ميونيخ تحت سيطرتهما. إلا أن الأمر الأكثر أهمية - فى عصر "الميديا" هذا -

كان وجود متحدث بلسان المسلمين يمكنه حضور موسم الحج، أو أن يكون ممثلا بمؤتمر أو بآخر معلنا نفسه زعيما مسلما ينتمى إلى الغرب يعيد الحريات وينتقد القمع السوفييتى للمسلمين. لقد كان "كوجا أوغلو" موضع ثقة الكثيرين بما له من أتباع ومريدين فى ميونيخ ... حيث تقاطر الآلاف للانضمام إلى عضوية جماعته الدينية.

هذا، وقد يكون "كوجا أوغلو" موضع احترام بمقدوره التواصل مع المسلمين فى "المعسكرات"، ولكن يبقى سؤال: "هل كان الرجل يملك سلطة تتيح له تمثيل "المسلمين الغربيين" على نحو موثوق فى المحافل الدولية؟ وهل كان بإمكانه التحدث باسمهم ومهاجمة الاتحاد السوفييتى؟... لقد كان العاملون بأمكومليب بنيويورك تخامرهم شكوك فى هذا الصدد ... لذا، فقد شرعوا يبحثون عن بدائل أخرى - كالبحث عن رجل سريع البديهة ألمعى ذى "كاريزما" طاغية وحضور آسر ... رجل يمكنه أن ينشط فى خضم حروب البروباغندا المحمومة تلك.

بادئ الأمر، لم يكن "روبرت دريهر" ذا كبير نفع للمسلمين ... ولكن بحلول أواخر الخمسينيات سيصبح الرجل الأكثر ارتباطا بزرعهم فى ميونيخ، إذ أضحى يشتهر بذلك. أما فى بداية عقد الخمسينيات، فقد كان "دريهر" عاشقا لكل ما هو روسى ... إذ كان يجد متعة بالغة فى مناحى الثقافة الروسية التى تتوافق واهتماماته. إن "دريهر"، ذلك الوسيم طويل القامة، قد انضم إلى أمكومليب ليتمكن من العودة إلى ألمانيا مستدعيا أوقاتا هنيئة أمضاها هناك كأحد رجال وكالة الاستخبارات المركزية. لقد كان بمقدور "دريهر"، عاشق الفودكا ومتحدث الروسية، أن يجارى أيا من أصدقائه الحميمين فى الرقص. فماذا عن "الإسلام"؟ ... كان "دريهر" - شأنه فى ذلك شأن غالبية العاملين بأمكومليب - لا يدرى كنه "الإسلام".

إلا أنه سرعان ما ستتبدل الحال، وذلك بفضل تأثير واحد من زملائه يدعى "برتيل إيريك كونيهولم" الذى كان يفضل "دريهر" مركزا وخبرة، كذا فقد كان أكثر تأثيرا وأمضى وقعا. لقد كان "كونيهولم" يترأس جناح "أمكوملیب" السياسى، وهو ثالث ثلاثة أفرع لعملياتها، بخلاف "محطة الراديو" و"المعهد". أما إدارة العمليات السياسية، فكانت تتولى الإشراف على جهود أمكوملیب المبذولة فى مجال الدعاية المستترة، والتى كانت موجهة - باطراد - إلى المسلمين على امتداد المعمورة بأسرها.

وينحدر "كونيهولم" من أصول اسكندنافية، فأمه سويدية تدعى "ماريا فيلتمارش"، وأبوه فنلندى يدعى "إيريك يوهان كونيهولم". هذا، ويجيد "كونيهولم" اللغتين السويدية والفنلندية، فضلا عن الألمانية والروسية ... وقد أكسبته خلفيته الأممية المتمثلة فى إجادته للغات عدة وهيئته ووسامته - حظوة بالمقارنة مع غيره من العاملين الأمريكيين بأمكوملیب. لقد كان "كونيهولم" متشككا بشأن الروس من ذوى الإثنيات ... فلم يكن يثق قط فى إمكانية إطاحتهم الاتحاد السوفييتى، إذ رأى أن مفتاح ذلك كله إنما يكمن فى "الأقليات". كذا، فكثيرا ما كان "كونيهولم" يمضى بعض الوقت مع "غير الروس" من تتر وأوزبك وآخرين بدعوتهم لتناول العشاء رفقته فى المنزل ليتسامروا بشأن "الوطن الأم" حول كئوس من الشراب مترعة. أما استخبارات ألمانيا الغربية فقد صنفت "كونيهولم" انشقاقيا حريصا على تقسيم الاتحاد السوفييتى عن طريق تأليب "غير الروس" وإثارتهم ضد "الروس".

لقد كان لكونيهولم باع طويل وخبرة ضافية فى المهام الاستخباراتية فيما بين الدول. ففى أثناء عمله الحكومى، وتحديدا فى وزارة الخارجية الأمريكية، كان "الرجل" مراقبا للمذبحة النازية ضد اليهود عام ١٩٣٨، حيث قام بإعداد تقرير عنها

... تلك المذبحة المسماة "ليلة البلور" Kristallnacht[٥٣]. كذا، فقد شهد "كونيهولم" التظاهرات للمطالبة بسقوط شاه إيران، والتى جرت وقائعها فى العاصمة "طهران" ... إذ كان يتولى الإشراف على الشحنات المرسلة إلى الاتحاد السوفييتى خلال الحرب الكونية الثانية، وذلك بمقتضى "قانون الإعارة والتأجير"[٥٤]. وبعد ذلك، قام "كونيهولم" بمراقبة حركات التمرد فى فلسطين والتى اندلعت إثر إعلان نشأة "إسرائيل". أما فى أمكومليب، فقد كانت مهام "كونيهولم" استراتيجية، ونادرا ما كان يسافر إلى خارج البلاد. ويستدعى العاملون ذكراه بأنه انخرط فى رسم السياسات وتحديد المعايير والضوابط.

أما "دريهر"، فكان على النقيض تماما من "كونيهولم" ... إذ انطوت شخصيته على "توليفة" غريبة جمعت ما بين سحر ترحابى مصطنع، وحماسة أيديولوجية متوقدة. إن "دريهر"، المولود فى ولاية "بنسلفانيا" الأمريكية عام ١٩١٦، ينتمى إلى أصول ألمانية. ولقد جاءت أحداث "الكساد العالمى الكبير" عام ١٩٢٩، وما تلاه من أعوام ... لتشكل شخصية "دريهر" وتصقلها ... إذ كان فى الثالثة عشرة عند بداية الكساد ... إذ يذكر دائما قيامه، آنذاك، بادخار كل نقود يتم التحصل عليها. هذا، وقد التحق "دريهر" بكلية "لافاييت" فى "ابستون" ببنسلفانيا، والتى تقوم بتدريس الفنون الحرة والهندسة، حيث كان مجتهدا يقضى أربعين ساعة فى الأسبوع فى كد وتعب إلى أن تخرج بامتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٣٨ فى تخصص "الهندسة الميكانيكية". وشأنه فى ذلك شأن العديد من الأمريكيين الذين عانوا شظف العيش والحرمان خلال سنى "الكساد الكبير"، وجد "دريهر" نفسه منجذبا إلى وعود الاتحاد السوفييتى بالعدالة والرفاه. وفى عام ١٩٣٨، التحق "دريهر" بشركة "استاندرد أويل" فى "نيوجيرسى" ... أما العام التالى (١٩٣٩)، والذى شهد إقامة "المعرض العالمى"

فى نيويورك[٥٥]، فقد أعجب "دريهر" بالمعرض أيما إعجاب حيث كان جناحه "المفضل" جناح "الاتحاد السوفييتى"[٥٦]. "واعتبارا من ذلك الوقت فصاعدا، كنت أتابع كل ما يمت بصلة للسوفييت بشغف محموم إلا أنه حضارى منظم"، وذلك وفقا لما قاله "دريهر" لاحقا ..."فقد كنت التهم الكتب والصحف المصدرة حديثا ... والتى كانت - وكما اتضح لاحقا - ذات توجه موال للسوفييت بشدة، بل وعلى نحو سخيف".

كذا، فقد شرع "دريهر" فى دراسة الهندسة بجامعة "كولومبيا" الأمريكية، إلا أنه انضم إلى سلاح البحرية حين اندلعت الحرب الكونية الثانية، حيث أتاحت له مهاراته الهندسية وظيفة مكتبية فى "جاكسون فيل" بولاية فلوريدا ليعمل لدى أحد مراقبى بناء السفن. وحين هدأ اضطرام الحرب، اعتمد سلاح البحرية مذكرة لانتقاء متطوعين لدراسة اللغة الروسية. عند ذلك، التحق "دريهر" بتلك الدراسة ليختلف إلى مدرسة اللغات فى "بولدر" بكولورادو ... حيث أتم الدراسة عام ١٩٤٦ بعد انقضاء الحرب، فكان من الممكن - إذا - أن يتم تسريحه. إلا أنه فى ذلك الوقت، فإن ضابط الاتصال البحرى مع الاتحاد السوفييتى فى ميناء "أوديسا"، الميناء الأوكرانى على البحر الأسود، كان قد تقدم بالاستقالة ... وهنا سئل "دريهر" عما إذا كان راغبا فى تمديد خدمته ليحل محل ذلك الضابط.

"أيمكننى هذا؟ كان جواب "دريهر" ... ليتم إرساله إلى الاتحاد السوفييتى حين شرعت "الحرب الباردة" تكتسب زخما.

لقد كانت "أوديسا" الموضع الذى أكسب "دريهر" صيتا وشهرة ... "أوديسا"، ذلك الميناء الذى تعبر من خلاله جل مساعدات "الأمم المتحدة" الإنسانية إلى الاتحاد السوفييتى الذى أنهكته الحرب كثيرا. وكانت معظم تلك المساعدات تحمل بواسطة

السفن الأمريكية، ومن ثم دور البحرية فى الإشراف على أسطولها الصغير وتأمينه. إلا أن التوترات قد أخذت تتنامى وتيرتها فيما بين "الحليفين" السابقين. وفيما كان "دريهر" يطوى بعض الأوراق الخاصة بالعمل، والتى كان قد فرغ من إعدادها، قاصدا الولايات المتحدة ... إذ تم احتجازه عقب مشادة لم تظل حيث طرد على الفور من الاتحاد السوفييتى. هذا، وقد تصدرت الواقعة الصفحة الافتتاحية لصحيفة "نيويورك تايمز" الصادرة فى السادس عشر من آب/ أغسطس ١٩٤٨ ... حيث زعمت الولايات المتحدة أن "دريهر قد تم تجنيده مقابل بعض أموال أغرى بها، فيما ذهبت صحيفة Pravda السوفييتية (الحقيقة) إلى كون "دريهر" يعمل جاسوساً.

هذا، ولا يمكن إغفال المزاعم السوفييتية أو اعتبارها ضربا من البروباغندا ... إذ عمل "دريهر" لدى "مكتب الاستخبارات البحرية"، ووفقا لروايته هو، فقد أمضى الكثير من وقته بأوديسا متجولا بعربته فى ربوع الريف هناك ليحمل عليها بعضا ممن كانوا يلتمسون "توصيلة" بالمجان إلى هذا المكان أو ذاك hitchhikers، فضلا عن اكتساب صداقة أى ممن كان يصادفهم وقتها. أما فى موسكو، فقد كانت له مغامرة عاطفية مع طالبة روسية تدرس العلوم الطبية، وتدعى "غالينا سبيريدونوفا" ... حيث أفاد من استغلاله لكفاءاتها البحثية. هذا، وقد قام "دريهر" بإخبار الأدميرال "ليزلى ستيفنز"، كبير مسئولى البحرية بالسفارة الأمريكية بموسكو، عن مغامراته العاطفية تلك.

"لقد كانت لى - فى الاتحاد السوفييتى - علاقات مباشرة حميمة مع أناس كثر تعددت مشاربهم وتباينت مستويات تعليمهم ووظائفهم ومداخيلهم ... كذا، فقد تنوعت انتماءاتهم السياسية، وذلك أثناء السنوات الحرجة التى أعقبت انقضاء الحرب الكونية الثانية ... علاقات فاقت أية علاقات قد يكون أقامها أمريكى آخر، بل

وأى أجنبى ينتمى إلى هذه الدولة أو تلك. إنه من المؤكد كون ملفى بجهاز أمن الدولة السوفييتى ملفا متخما بأكثر من أى ملف لمن جايلونى من أجانب هناك"(١). كانت تلك كلمات "دريهر" الواردة بالفصل الافتتاحى لكتاب غير منشور يروى فيه بعضا من مغامراته "الروسية".

وبعدها بسنوات، حين كتب "دريهر" عن واقعة القبض عليه ... أورد كونه موقنا أنه قد تم استجواب أولئك ممن حملهم فى عربته - وبعبارة أخرى، فقد كان مدركا أنه قد تم تعقبه وملاحقته. أما فيما يخص "غالينا سبيريدونوفا"، فقد توقع "دريهر" أن يكون قد تم القبض عليها بسبب حماقتها وطيشها - وهو عين ما حدث بالفعل، حيث أمضت "غالينا" سنوات طويلة فى معتقلات سيبيريا كادحة فى إصلاح الطرق وأكل عصائد الشعير[٥٧]. أما "دريهر" فقد عزا القبض عليها لا إلى حماقته، بل إلى "السوفييت".

هذا، وقد صقلت "دريهر" التجربة وأكسبته حنكة، وجعلته أحد محاربى أمكومليب الأشاوس شديدى المراس إبان "الحرب الباردة". وفى أعقاب طرده من الاتحاد السوفييتى قفل "دريهر" راجعا إلى الولايات المتحدة ليترأس "ديسك" الاتحاد السوفييتى التابع للاستخبارات البحرية الأمريكية. وبعد ذلك بثلاثة أعوام، وتحديدا فى عام ١٩٥١، التحق "دريهر" بوكالة الاستخبارات المركزية، والتى أورد باستمارة الالتحاق بها السبب الذى دفعه إلى ترك سلاح البحرية الأمريكى بأنها رغبة منه فى أن يدلى دلوه مباشرة فى عملية "التحرير" ... تلك السياسة الأمريكية الجديدة الداعية إلى إطاحة "الشيوعية" بلا هوادة، لا إلى احتوائها. وأنه التحق

---

(١) جهاز أمن الدولة السوفييتى MGB هو الجهاز الذى جاء جهاز الاستخبارات السوفييتى KGB ليخلفه.

بالوكالة فى وقت كانت ما تزال فيه جبهة المواجهة ضد أى صراع كبير متوقع. ونظرا لكون "دريهر" يعتنق الديمقراطية وفقا للنهج "الروزفلتى"، فلم تكن ليبراليته لتتعارض والعمليات "المغطاة"، إذ عدها إحدى وسائل القضاء على دولة سلطوية شمولية.

إن سيرة "دريهر" الوظيفية والعملية لتبدو وكأنها قد قدت لتناسب المهام "المغطاة" أيما تناسب. على أن الأمر لم يقتصر فحسب على إجادته الروسية، وكذا الألمانية – ولو على نحو أقل، أو خبراته المكتسبة فى حقل الاستخبارات العسكرية ... وإنما كان المحك "حياته الشخصية"، والتى بدت باستمارة الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية صفحة ناصعة البياض ... إذ كان له، آنذاك، ثلاثة أقارب فحسب: أب وأم وأخت ... قد ولدوا جميعا بالولايات المتحدة، كذا ... فإن "دريهر" لم يتزوج قط، فضلا عن عدم انخراطه فى صفوف أى من الأحزاب السياسية أو أى كيان قد يكون مثارا لجدالات واسعة – بأكثر من جمعية ٥٨– Phi Beta Kappa– أو الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين. كذا، فلم يسبق لدريهر الحصول على قرض ... إذ أبدى فى استمارة الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية أسفه لإضاعته سيولة مالية كبيرة ابتاع بها عربته "الشيفروليه" من طراز ١٩٤٨ .

أما محددات انتقاء المرء للالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية فلم تكن،آنذاك، تتوخى قدرا كبيرا من دقة. ففى استمارة التحاقه بالوكالة، نفى "دريهر" – كتابة – أن يكون ثمة ما قد يثير الشبهات حوله بشأن مسار حياته الخاصة. إلا أن "دريهر" – فى واقع الأمر – كان "زير نساء"، بل كان يفاخر أمام الأصدقاء والزملاء مباهيا بانتصاراته فى تلك "الغزوات النسائية" ... بيد أن ذلك لم يكن – بحد ذاته – حائلا دون قبول الوكالة لإلحاق أيا من كان بها، إلا أن "دريهر" كان قد شرع– فى رحلة

سابقة إلى ميونيخ – فى إقامة علاقة حميمة طالت كثيرا مع سيدة ذات أصول إثنية صينية. أما العلاقة فقد أفضت إلى أن وضعت السيدة مولودة، وهو الأمر الذى ظل سرا بين "دريهر" وعشيقته تلك ... لقد كان "التحرر" و"العلاقات النسائية" قطبى حياة هذا الرجل.

هذا، وقد أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية "دريهر" ثانية إلى ميونيخ ليمضى بها عاما، إلا أنه سرعان ما أسرج جواد الأوبة إلى الولايات المتحدة، إذ كان قد منح وظيفة فى نيويورك ليعمل ضمن فريق أمكومليب المؤسسة حديثا ... والتى كان يترأسها الأدميرال "ليزلى ستيفنز" – رئيسه القديم بموسكو. وقد كان "دريهر" الرجل الثانى فى أمكومليب كضابط اتصال لوكالة الاستخبارات المركزية بها، محتفظا برتبته وبدخله من "الوكالة"، حيث لم تمض إلا أعوام قلائل حتى رجع "دريهر" إليها. أما فى أمكومليب، فقد أعطى وظيفة مرموقة للغاية – رئيس إدارة دعم برامج "الراديو" – فكانت مسئوليته فحص "المادة" المعدة فى ميونيخ وتدقيقها، وكذا ضمان أن تؤتى الرسالة الصائبة أكلها إذ هى أصابت الهدف ... هذا، وقد أجزلت أمكومليب العطاء لدريهر إذ منحته ١٠٠٠٠ دولار أمريكى فى العام، وهو مبلغ كبير فى تلك الآونة، فضلا عن كونه من أعلى المبالغ الممنوحة من قبل أمكومليب لمسئوليها.

وقد لحق "دريهر" بكونيهولم بمقر أمكومليب بنيويورك المتاخم لـMadison Avenue محور حركة الدعاية العالمية وقبلتها. هذا، ويقع فندق "روزفلت" فى الشارع ذاته ... وهو محل يقصده العاملون بأمكوليب أحيانا لتناول شراب أو آخر عقب ساعات الدوام. أما المكاتب نفسها، فكانت تبعث على السكينة والهدوء. هذا، وقد شيدت البناية ذات الأربعة عشر طابقا، والتى تشغلها أمكومليب من حجر رمادى اللون. أما الداخل فكان يحوى سجادا ذا ألوان هادئة ومصابيح باهرة لها

طنين، تنشط بأرجائه سكرتيرات هادئات الطباع. وقد ذكر أحد العاملين اليهود أنها كانت تبدو وكأنها بنك للأمريكيين ذوى الأصول الأنجلو/ ساكسونية مما أشعره بعدم الارتياح.

وعلى الرغم من أن العاملين فى أمكومليب بميونيخ كانوا ينعمون بهامش كبير من حرية، إلا أن الأمر كان مختلفا فى نيويورك حيث كان كل من "كونيهولم" و"دريهر" - على وجه الخصوص - يصوغان الاستراتيجية ويضبطان الإيقاع ... الأمر الذى خلق صدعا معضلا فيما بين العمليات التى تجرى وقائعها فى ميونيخ وبين مقر الإدارة فى نيويورك. لقد خال العاملون فى ميونيخ مكتب نيويورك برجا عاجيا يحتضن غلاة مناهضى الشيوعية عاجزا عن فهم فسيفساء التعامل مع أناس ينتمون إلى ثقافات مغايرة ... ذلك التعامل الملغز المعقد، والذى سيضحى سافرا - على وجه الخصوص - حين تيمم أمكومليب اهتمامها شطر "الإسلام".

إلا أن "دريهر" كان قد بات ضجرا برما بالعيش فى "أمريكا الخمسينيات" ... لذا، فقد عمد إلى استئجار سكن فى بناية شيدت من حجر رملى أسمر فى Greenwich Village الواقعة فى الجانب الغربى من "مانهاتن" السفلى بنيويورك سيتى ... حيث كان يحيا بها حياة رجل أعزب يحتال للعودة إلى أوروبا. وكان لدى "دريهر" أسباب مهنية لتلك العودة. فوفقا له، كان أداء "راديو الحرية" جيدا، إلا أن المهام "المغطاة المستترة" قد ظلت ضعيفة عاجزة بحاجة إلى تعضيد وموآزرة. أما الكيفية التى سينجز بها ذلك فلم تكن قد تبلورت بعد. أما "كونيهولم" - رئيسه فى العمل" فكان المخول بصوغ استراتيجية أمكومليب أنى شاء.

فى الأعوام الباكرة من "الحرب الباردة" لم يكن رجال وكالة الاستخبارات

المركزية من أمثال "روبرت دريهر" يختلفون كثيراً عن المألوف ... إذ كانت الوكالة تضم فصيلين: المهنيين ممن عملوا لدى وكالات استخباراتية مختلفة إبان الحرب الكونية الثانية، والوافدين الجدد غريبى الأطوار. وكان الكثيرون ممن ينتمى إلى الفصيل الأخير قد شهدوا الحرب إلا أنه قد تم تجنيدهم لحساب وكالة الاستخبارات المركزية لتحقيق هدف بعينه ظل ماثلا فى الأذهان، ألا وهو إحياء الوكالة التى كان ينظر إليها - حينها - على أنها مغرقة فى البيروقراطية، وكأنها بحيرة من ماء آسن. ولقد كان "دريهر" ينتمى إلى ذلك المعسكر (الفصيل) الأخير.

هذا، وقد كان منشئ ذلك الفصيل ومصدر إلهامه - "فرانك غاردنر ويزنر" (١٩٠٩ - ١٩٦٥)، أحد الرموز الأسطورية فى تاريخ الاستخبارات الأمريكية. وينحدر "ويزنر" من عائلة ميسورة بالميسيسبى، وقد عمل محاميا بسوق الأوراق المالية فى "وول ستريت" قبل أن يلتحق بسلاح البحرية الأمريكى فى الحرب الكونية الثانية. إلا أنه سرعان ما عمل لدى "مكتب الخدمات الاستراتيجية" والتى كانت بمنزلة وكالة استخبارات تلك الحرب الكونية - ليشهد، مباشرة، اجتياح السوفييت لجنوب شرقى أوروبا والحرب ماضية إلى أفول. وعقب تسريحه، عاد "ويزنر" ثانية إلى "وول ستريت" حيث كان "آلان ويلش دالاس" - المسئول السابق بمكتب الخدمات الاستراتيجية يعمل هناك. وكان الاثنان يلتقيان بانتظام لتناول وجبة الغداء والتحسر على قيام حكومة الولايات المتحدة بتمزيق أوصال جهاز خدماتها الاستخباراتية. وهنا يتذكر صديق[٥٩] قد شهد إحدى وجبات الغداء تلك أنهما قد راودتهما الآمال للعودة مرة أخرى إلى وكالة الاستخبارات المركزية، قائلا: "إنهما كانا رومانسيين حالمين خالا نفسيهما بطلى تحرير هذا "الكوكب" ومحور خلاصه".

فى عام ١٩٤٧، عمد "دين آتشيسون"[٦٠] إلى تجنيد "ويزنر" فى وزارة

الخارجية الأمريكية، ومراقبة النشاط السوفييتى فى أوروبا الشرقية. وقد قام "ويزنر" بشراء مزرعة فى "ماريلاند"، ومنزلا فى "جورج تاون". إن "ويزنر" ... ذلك الرجل المكتنز قوى البنيان الذى اشتهر بألمعيته وذكائه - قد أضحى "نجم" حفلات العشاء التى ضمت الصفوة النخبوية فى واشنطن، حيث جادل بقوة لصالح اتخاذ فعل ما ضد السوفييت. وككثير غيره فى واشنطن، شعر "ويزنر" أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى وكالة جديدة للقيام بذلك ... وكالة لا تدين بالفضل لأى سياسى أو موظف حكومى - وكالة قادرة على درء السيئة السوفييتية بسيئة مماثلة.

بيد أن حقيقة الأمر أن كان - بالفعل - ثمة وكالة بالولايات المتحدة كتلك التى تحدث عنها "ويزنر"، فقد كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية الوليدة "مكتب العمليات الخاصة" Office of Special Operations - OSS، والذى ضم عددا من خبراء الاستخبارات المخضرمين. بيد أن "الوكالة" كانت تأتمر بأوامر مجلس الأمن القومى الأمريكى ... وهو ما يعنى كونها محاسبة ومراقبة من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن "مكتب العمليات الخاصة" كان قد فرغ لتوه من التدخل بنجاح فى الانتخابات الإيطالية[٦١] للحيلولة دون انزلاق إيطاليا فى غيابات الشيوعية، إلا أنه قد نظر إلى "المكتب" كونه منخرطا فى مهام جاسوسية، لا فى مناشط سياسية.

هذا، وقد شرع "ويزنر" فى محاولة لكسب التأييد لمشروع وكالته "الجديدة" وفى عام ١٩٤٨ كان له ما سعى إليه إذ أنشأ كيانا تحت اسم "مكتب تنسيق السياسات" اتخذ من وكالة الاستخبارات المركزية مقرا له، إلا أنه لم يكن يأتمر إلا بأمر وزارتى الدفاع والخارجية الأمريكيتين. وقد تم تخويل "ويزنر" مسئولية "المكتب" الوليد ليضحى، من فوره، أحد أكثر الرجال نفوذا فى حكومة الولايات

المتحدة الأمريكية. كذا، فقد سعى "ويزنر" حثيثا لتجنيد "اللاجئين" فى أوروبا باعتبارهم جيشا من مناهضى الشيوعية الساخطين، أو كذلك كانت صورتهم لديه ... جيشا يتوق إلى القتال فى تلك "الحروب الساخنة" التى باتت قاب قوسين أو أدنى. ولإدارة العمليات، سعى "ويزنر" إلى البحث عن "رجال استثنائيين"، فقام بتجنيد العديد من "وول ستريت" إيمانا منه بكونهم يتمتعون بعقلية تنشد المغامرة والمخاطرة ... تلك التى يتم التوسل بها لإنجاز المهام. كذا، قام "ويزنر" بتكثيف التجنيد من "مدارس رابطة اللبلاب" – وهى رابطة تعليمية ورياضية تجمع ثمانى من أشهر جامعات الولايات المتحدة وأقدمها. هذا، وقد عمد "ويزنر" إلى إقناع المسئولين بواشنطن بأن فريقه قد ضم "صفوة الصفوة" ... تلك الصفوة التى كانت تكافأ بمبالغ طائلة. ويفصح مرآب السيارات الخاص بوكالة الاستخبارات المركزية عن الفرق بين عملاء "مكتب العمليات الخاصة"، وعملاء "مكتب تنسيق السياسات"، إذ يقود رجال الفريق الأول عربات من طراز "شيفروليه"، و"فورد" ... فيما يقود رجال الفريق الآخر عربات من طراز "جاكوار"، و"موريس MG".

فى أوج الحرب الكورية، والقتال على أشده ... قام بعض من رجال "مكتب تنسيق السياسات" باختطاف شاحنة نرويجية كانت متجهة صوب كوريا الشمالية ... إلا أن النجاح لم يكن ليحالف "ويزنر" على طول الخط، إذ خابت مساعيه فى بعض الأحايين وفشلت ريحه فشلا محققا – إذ أعطى ضابطا بولنديا ذات مرة أربعمائة ألف دولار أمريكى لقاء تعهد الضابط بأن يوافى ميونيخ بأحدث طرز المقاتلات السوفييتية. إلا أن "البولندى" هذا قام بإنفاق المبلغ على ملذاته ... ما بين أقداح الشمبانيا ومخادع العاهرات بأحد فنادق ميونيخ. كذا، فقد انتشرت، آنذاك، ممارسات غرائبية – فعلى سبيل المثال، ولإظهار أن بإمكان "مكتب تنسيق

السياسات" الإتيان بأى فعل كائنا ما كان – عمد اثنان من "المكتب" إلى إغلاق تقاطع اثنين من أهم شوارع نيويورك[٢]، حيث قاما بحفر حفرة كبيرة هناك ثم انصرفا فى هدوء وكأن أمرا لم يكن. "لقد كان ضربا من مزاح" ... ذلك كان تعقيب "توماس برادن"، من وكالة الاستخبارات المركزية، بشأن تلك الواقعة!! أما "ويزنر"، فقد كان يتيه مفاخرا أن صنيعته المسماة "مكتب تنسيق السياسات" كانت كأنما هى "أرغن عملاق"[٦٢] ... أرغن يمكن أن يعزف بواسطته أى لحن ... من نغمة الدبلوماسية الحانية إلى هدير المعارك الضارية. وكانت أنغام ذلك الأرغن العملاق تضخم لتحدث دويا أكبر بواسطة مكبرين للصوت – عملاقين بدورهما: راديو "الحرية"، وراديو "أوروبا الحرة".

إن "مكتب تنسيق السياسات" لم يكن جمعية سرية. فالكيان المكون من سياسيين ومسئولين وصحافيين من ذوى النفوذ فى العاصمة الأمريكية خلال أربعينيات القرن العشرين ... كان أعضاؤه جميعهم مؤمنين بأن الولايات المتحدة يتحتم عليها محاربة السوفييت. ولم يكن العصر، آنذاك، عصر الجاسوس "جورج سمايلى" ... تلك الشخصية المختلقة فى روايات "جون لوكاريه" ... الشخصية المستهلكة منهوكة القوى التى تعمل فى محيط من الغموض. إن "مكتب تنسيق السياسات" قد ضم رجالا تغمرهم ثقة ويحدوهم طموح ... رجالا على يقين أن بإمكانهم محاربة "ستالين" مثلما تمكن الجنود الأمريكيون – فيما مضى – من هزيمة هتلر وأيديولوجيته النازية. إذا، فقد آن الأوان ... إذ كان هؤلاء الهواة المتحمسون قد أخذوا أهبتهم للوقوف فى وجه جهاز الاستخبارات السوفييتى KGB. وكان كل ما يحتاجون إليه: حلفاء أكفاء من بين زمرة اللاجئين.

2- Madison Avenue & 42nd Street.

خلال أيلول/ سبتمبر ١٩٥٥، رسا "برتيل كونيهولم" فى اسطنبول حيث قام بحجز مضجع بإحدى عربات النوم فى القطار الليلى المتجه إلى أنقرة، ثم يمم قاصدا مطعم "الحاج عبد الله" أو "حاجى عبد الله" الشهير فى اسطنبول لعشاء خفيف ... "ثم ما لبثت أن فتحت أبواب جهنم" ... ذلك ما كتبه "كونيهولم" فى رسالة بعث بها إلى زملائه فى نيويورك. إذ تحولت المسيرات الغاضبة المناهضة للوجود اليونانى فى جزيرة قبرص إلى تظاهرات مناهضة للمسيحية اتسمت بلون من كراهية الأجانب. وفى البدء، تم استهداف المصالح التجارية اليونانية فحسب، إلا أنه مع حلول الليل كانت كنائس ست قد أتلفت تماما. أما الكاتدرائية المجاورة للمتحف البحرى العسكرى، فقد أضرمت فيها نيران ظلت مشتعلة طيلة ساعات الليل فأضاءت خليج "البوسفور". وكديدنه حين يشهد أحداث عنف تواترت تباعا قبالة ناظريه، عمد "كونيهولم" إلى كتابة تقرير أصم عن الواقعة، جاء فيه أن التظاهرات لم تكن عفو الخاطر أو تلقائية بمثل ما زعمت الحكومة، بل كانت منظمة على نحو فائق بواسطة جماعات قومية متطرفة مناهضة لليونانيين. أما الحل الذى اقترحه "كونيهولم" فى هذا الصدد، فكان مزيدا من تدخل الدولة.

ولقد لقى موقف "كونيهولم" هذا ترحيبا واسعا من "معارفه" بالبوليس السرى التركى ممن ارتأوا أن الحاجة تعن إلى مزيد من إعمال القانون وفرض الانضباط. أما "كونيهولم"، فكانت رحلته إلى تركيا ذات طبيعة خاصة، إذ كان يرغب فى حشد المسلمين للانضمام إلى الحرب الدعائية المستترة لأمكوموليب فى العالم الثالث. بيد أن تركيا كان قد ساورها القلق من أن يعمل الدعم الأمريكى على تشجيع اللاجئين على مطالبة الحكومة التركية بمساعدتهم. أجل ... لقد كان الأتراك يؤيدون أهداف مهمة "كونيهولم" وجهوده المناهضة للشيوعية، إلا أنهم كانوا بحاجة إلى الاطمئنان إلى عدم انفلات اللاجئين من عقالهم، وشروعهم فى حملاتهم التمردية الغاضبة.

لذا، فقد أكد لهم "كونيهولم" أن المهمة ستكون محكمة وسرية. هذا، وقد قام الأتراك بتقديم التهنئة إلى "كونيهولم" لإرساله "روسى نصار" إلى "باندونغ" لحضور مؤتمر "دول عدم الانحياز". أما أن نجاح "نصار" كان يرجع - فى الأساس - إلى تشديده على مفهوم "الإسلام"، فإن ذلك ما بقى مسكوتا عنه.

إن جولة "كونيهولم"، والتى استغرقت نحوا من ستة أسابيع، قد أجريت بعد أن قامت أمكومليب بهجر النسق القديم لقسر اللاجئين "الروس" و"غير الروس" على العمل معا. أما الهدف، فكان إرساء مجموعة مواجهة لإدارة "راديو الحرية"، بحيث تبدو أنها منشأة جماهيرية انبثقت من رحم القاعدة الشعبية، وليس كيانا استخباراتيا. إلا أن ذلك الأمر قد منى بفشل محقق بالرغم من جهود دبلوماسيين محنكين من أمثال "إسحاق باتش"[٦٣]، الذى ورد ذكره آنفا. ومن الجلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بحاجة إلى تخصيص وقت أطول للتفكير بشأن كيفية توظيف "الإسلام"، على ألا يكون هذا التوظيف مرتكناً إلى كتلة "مسلمة" كبيرة العدد لتجنيدها. وكانت جولة "كونيهولم" فرصة مواتية للتفكير وإنعام النظر وصوغ أفكار جديدة. فخلال ستة أسابيع أو نحوها قضاها بين مواقع عدة، تمكن "كونيهولم" من مقابلة جميع زعماء اللاجئين إلا قليلا - وذلك فى كل من باريس وميونيخ واسطنبول وأنقرة، حيث كانت الأغلبية من المسلمين.

وكان أحد أولئك الزعماء ... سعيد شامل، والذى تنتمى عائلته إلى أبرز العشائر الداغستانية. ففى القرن التاسع عشر، قاد جده الإمام "سعيد شامل الداغستانى النقشبندى" الجهاد ضد التوسع الروسى فى القوقاز، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى الاستسلام، ثم سمح له بالحج إلى مكة ... حيث جاور فى المدينة المنورة حتى وفاته عام ١٨٧١ . وكان الإمام قد اشترى بعض أراض هناك أضحى لها قيمة نقدية كبيرة فى القرن العشرين فقامت العائلة ببيعها والارتحال إلى سويسرا.

أما الحفيد، محمد سعيد شامل (١٩٠١ - ١٩٨١) فقد شارك فى جهود "النازى" فى توظيف "الإسلام". وبعد انقضاء الحرب الكونية الثانية، عاد "شامل" إلى سويسرا وانخرط فى الجهود الرامية إلى توحيد الصف الإسلامى على امتداد المعمورة. وبحلول عام ١٩٥٥، صار "شامل" قريبا من الأمريكيين. هذا، وقد أورد "الكسندر ميلباردیس"، نائب رئيس شئون اللاجئين بأمكوملیب، كيف كان الأمريكيون ينظرون إليه: "لقد كانت عائلة شامل ذات صيت وثراء ... نحن نريده فى صفوفنا".

وقد أوضحت وثائق الاستخبارات الأمريكية أن "شامل" كان يرفد الأمريكيين بمعلومات عن زعماء اللاجئين، مما يدل على أنه كان متعاونا معهم، إن لم يكن قد عمل لحسابهم مباشرة. إلا أن نمط حياة "شامل" فى الغربة قد دفع الكثيرين إلى التساؤل عما إذا كان بوسع "الرجل" مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية. وفى هذا الصدد، فقد أورد "كونيهولم" أن "شامل" كان يحيا فى القوقاز، إلا أنه -وفى أعقاب الغزو الشيوعى - لم يعد ثانية إلى أرض الوطن، بل جال طوافا ما بين المدينة المنورة، ومكة، وبيروت، والقاهرة، و ... وجنيف بطبيعة الحال.

وفى ميونيخ، التقى "كونيهولم" - ثانية - بعض المسلمين ... وكان لقاء ضم قرابة جميع المنخرطين فى الجهود الرامية إلى توظيف "الإسلام"، من أمثال "على قنطمير"، والذى وصفه "كونيهولم" ساخرا بأنه "ماكر وداهية كديدنه، إذ تحلى بروح الخداع والمكيدة كعادته". وكذا، "أحمد نبى ماغوما"، والذى قال عنه "كونيهولم" إنه "ثورى قديم لطالما تلقى أموالا "بريطانية" لسنوات وسنوات، وذلك فضلا عن كون الاثنين - "قنطير" و"ماغوما" - قد ربطتهما علاقات وثيقة بالاستخبارات الأمريكية طالت كثيرا. كذا، فقد التقى كونيهولم "غريب سلطان" وغيره من موظفى أمكوملیب العاملين براديو "الحرية"، والذين ناشدوا بمهلة إضافية كيما يتمكنوا من الإتيان

"بفعل سياسى ... "الفعل السياسى" - هذا هو "الشيفرة" الدالة على أعمال البروباغندا المستترة كتلك التى كتب لها نجاح فى موسم الحج وخلال مؤتمر "باندونغ" على حد سواء ... وذلك عوضا عن مجرد بث دعايات مناهضة للسوفييت. هذا، وقد أخبرهم "كونيهولم" أن "الفعل السياسى" سيتم التنسيق بشأنه من خلال اسطنبول، حيث كانت أمكومليب تنسج خيوطا لروابط ومعارف أفضل.

وكان "إبراهيم كوجا أوغلو" التالى على قائمة "كونيهولم" لزعماء اللاجئين من ذوى التأثير. وبالرغم من أن أمكومليب كانت قد شرعت - آنذاك - فى دعمه وتعضيده، إلا أن "كونيهولم" لم يكن متحمسا لذلك. فوفقا له: "ثم وفد السيد كوجا أوغلو - صاحب الجماعة الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا - رفقة اثنين من تابعيه لالتماس المساعدة للجماعة. إلا أننى قد شجعته على استحياء، إذ أومن أنه يجب ألا تكون لنا أدنى صلة بشخصية بغيضة كتلك ... شخصية يحمل ماضيها الكثير مما تدور حوله الشبهات، فضلا عن كونها شخصية سيئة السمعة فى الشرق الأوسط، على وجه التحقيق ... فهو فظ ذو ثقافة ضحلة لا هم له إلا السعى للاتجار باسم الدين، ومن ثم استغلال الدين لبلوغ مآربه".

إلا أن الأرجح أن "كونيهولم" قد كان قاسيا بعض الشىء فى تقييمه للرجل ... تقييم انبنى على تحيز وغياب إنصاف. بيد أنه لمن الجلى أن "كونيهولم" - شأنه فى ذلك شأن "فون منده" - كان باحثا عن رجل آخر ذى نمط أكثر "عصرنة"، شخصية أوفر سحرا وجاذبية ... إذ إن "كوجا أوغلو" - بتعليمه المتواضع، بله سطحيته - لم يكن ذلك الوجه ولا تلك الواجهة التى شعر الأمريكيون أن بمقدورهما نقل وجهة نظرهم إلى "العالم الإسلامى". كذا، فقد ذكر "كونيهولم" كيف احتضن مسلمو ميونيخ "حلما" بعينه ... حلما تمثل فى بناء مسجد. تلك كانت المرة الأولى التى يذكر فيها هدف كذلك، إلا أن "كونيهولم" قد اعتبره هدفا خياليا وخطة شديدة

الطموح ... ومن ثم فقد عمد إلى تجاهلها.

إنها غرفة الاستقبال بفندق "البلاط البافارى" فى ميونيخ الخمسينيات ... ألواح خشبية تكسو الجدران مثبت بها أرفف اصطفت عليها أباريق الجعة الخزفية، وبعض رءوس حيوانات محنطة ... إنها الوجهة التى يقصدها رواد يلتقون بين الحين والآخر لتناول بعض الطعام الخفيف، واحتساء الجعة البافارية المميزة، والاستمتاع بمسحة ريفية ألمانية فى قلب "ميونيخ" الصاخبة. أما فى أحد أيام آب/ أغسطس من العام ١٩٥٦، فكان المشهد قد أعد إعدادا مغايرا بالكلية ... إذ أمضى "الكسندر ميلباردیس"، وبعض العاملين بأمكومليب سحابة يومهم هذا فى تثبيت بعض من قطع السجاد "القوقازى" على الجدران، وإحلال أطباق خزفية تزينها نقوش "إسلامية" محل أباريق الجعة. أما الطاولات، فقد حفلت بما لذ وطاب من فواكه استوائية ... حتى أن المناديل الموضوعة على تلك الطاولات كانت قد اختيرت بعناية، إذ كانت "خضراء" ... اللون الممثل للإسلام.

وفى الغرفة ... احتشد ما يربو على خمسة وأربعين صحافياً كى يشهدوا الحدث. أما المضيف، فكان "إبراهيم كوجا أوغلو" الذى قام بالترحيب بالحضور، وتقديم "غريب سلطان" كأحد أعضاء "جماعته الدينية" ... وذكر "كوجا أوغلو" – فى ألمانية ركيكة لا تكاد تفهم – أن "غريب سلطان" قادم لتوه من رحلة "الحج"، وأن لديه ما يقوله عن الحالة المؤسفة للإسلام "السوفييتى"، ليترك الكلمة لسلطان الأفصح منه لسانا، والأعذب منه منطقا.

أما "سلطان"، فقد تحدث عن رحلة "الحج" إلى مكة، والتى رافقه فيها "إبراهيم كوجا أوغلو"، فضلا عن أحد العاملين براديو "الحرية"، ألا وهو "ولى زنون" – من "الديسك" الأوزبكى. هذا، وقد وبخ "سلطان" السوفييت لاستغلالهم موسم الحج

لأغراض دعائية تتنافى ومقام جليل كهذا، زاعما أن الحجيج السوفييت هم "موظفون حكوميون" وأن بعضا منهم قد أرسلوا كجواسيس.

ومن المؤكد أن أحدا من الصحافيين الحضور لم يكن يعرف أن "سلطان" ليس عضوا فى جماعة "كوجا أوغلو" الدينية، أو أن تلك "الجماعة" كانت - بدورها - إحدى جبهات وكالة الاستخبارات المركزية. إلا أنهم قاموا بما كان متوقعا ... إذ عمدوا إلى نقل "الدعاية" إلى الجمهور. أما صحيفتا "ميونيخ" الأكثر شهرة Munchen Merkur و Suddeutsche Zeitung... فقد أوردتا، بتاريخ الثالث عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٦، مقالتين عن رحلة الحج المذكورة ... حيث قامت الصحيفة الأولى بسرد "مآثر" غريب سلطان، وما قام به أثناء تلك الرحلة. أما قبل ذلك بأسابيع قلائل، وفى أثناء عودة "سلطان"، و"زنون" من الحج قاصدين "ميونيخ" مرورا باسطنبول ... فقد أجرت الصحيفة التركية "ميلليت" - أى الوطن - حوارا معهما نشر فى عددها الصادر فى الثانى من آب/ أغسطس ١٩٥٦، فضلا عن وصف تفصيلى مطول لرحلتهما.

لقد كانت أمكومليب راضية عن أداء "سلطان" فيما عهد إليه من مهام ... وهو ما ورد فى خطاب أرسله إليه "روبرت كيللى"، مدير أمكومليب فى ألمانيا فى الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦ - حيث دبج له مديحا حارا وإطراء ضافيا لمساهماته "الفذة" فى مناهضة البلشفية ... تلك المساهمات التى "تتيح لنا فهما أفضل ورؤية أجلى لحقيقة الخطر الشيوعى وتهديداته فى الشرق الأدنى".

أما خلف الكواليس، فقد ظلت أمكومليب متوجسة فى ترقب. ففى مذكرة داخلية عن رحلته إلى "الحج"، ذكر "غريب سلطان" أن "الرأى العام" قد جعل كفة الاتحاد السوفييتى راجحة. فوفقا لسلطان: "هنا يتعين على المرء أن يشير إلى ما ذهب إليه

أحد العرب العاملين بإدارة خدمة الحجيج – عن الاتحاد السوفييتى". ويستطرد "سلطان" فى مذكرته، فيقول: "حين أخبرت الرجل عن الجهة التى قدمت منها، أردف – على الفور – : "موسكو" ... لا بأس. إذ هناك إخواننا المسلمون. إن الحجيج يفدون من الاتحاد السوفييتى إلى مكة كل عام. أما الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون فكلهم كفار لا دين لهم ... إنهم أعداؤنا". إن الأمر الهام هو ندرة موارد أمكوموليب". لقد كاد "غريب سلطان"، و"ولى زنون" ألا يذهبا إلى الحج فى ذلك الموسم لكونهما قد تأخرا بعض الشىء، وكان يجب أن يتم إطلاق سراحهما بكفالة ... وهو ما قام به "سعيد شامل" الذى كان موجودا – حينها – فى منزل العائلة بالمملكة السعودية. لقد توسط "شامل" لدى السلطات السعودية للسماح للرجلين بالمضى صوب مكة. ولولا مساعدته، لكان الحاجان، "سلطان"، و"زنون" – المكلفان بالدعاية المناهضة للشيوعية، قد عادا أدراجهما، ولَمَا أنجزت المهمة.

ولقد كان "المؤتمر الصحافى" إخفاقا محققا آخر ... ذلك المؤتمر الذى جند "سلطان" لإدارة دفته نظرا لركاكة الألمانية التى يتحدث "كوجا أوغلو" بها. إلا أن "سلطان" لم تكن له مظاهر "الزعيم الدينى". إذ بدا لكل من قد لقاه أنه "علمانى" ... فقد كان شديد التأنق فى ملبسه، حريصا على أن يكون حليق اللحية والشاربين، فضلا عن أن الجميع كانوا يعلمون حبه للرقص، وشغفه بشراب "الفودكا". كذا، فعما قريب ... كان "سلطان" سيُرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل بإدارة "المشاريع الخاصة" التابعة لأمكوموليب. فأمكوموليب قد رغبت فى "وجه جديد". فرجال من أمثال "إسحاق باتش" كان من المفترض أن يوجهوا اللاجئين نحو العمليات "المستترة"، إلا أن المهمة قد باءت بالفشل. أما فى نيويورك، فقد كان "كونيهولم" و"دريهر" يراقبان "سلطان" على أحر من جمر الغضا ... فلقد كان "دريهر"، على نحو خاص، يتوق إلى مهمة أخرى بميونيخ ... حيث كان يأمل فى أن

يضع نظريات "الهجوم الاستباقي" موضع التنفيذ، فالمشكلة قد أضحت أكثر إلحاحا من ذي قبل.

وهنا ... كان "فون منده" - والذي كان صديقا لأمكومليب ذات مرة - عاكفا على تطوير خطته لاستقطاب مسلمي ميونيخ. وعلى خلاف "كونيهولم"، لم يكن "فون منده" ليغض الطرف عن رغبة أولئك المسلمين في أن يكون لهم "مسجد" يمارسون فيه شعائرهم ... إذا، فقد أضحى الأمر على رأس سلم أولوياته.